أحـــــلام

شروق الهامي

استيقظت فزعة وقد غمرها العرق وبلل ملابسها الخفيفة، كانت تشعر بأن حلقها جاف كالصحراء وتريد أن تشرب كثيراً، ولكن سرعة تدافع أنفاسها بصدرها وربكتها وإنهاكها جعلها لم تتحرك من مكانها لدقائق، شعرت كأنها كانت تجري من شئ مفزع، لا تذكره الآن ولكن جسدها مازال يرتجف بقوة، تقلبت ببطء للجهة اليسري لتري بجانبها صغيرتها النائمة في هدوء باسم وكأن العصافير تحلق فوقها تداعبها فأبتسمت هي وقد خلفت ملامح أبنتها الملائكية طيب الأثر المطمئن لقلبها المذعور. لاحظت كذلك عدم وجود زوجها فنادته في هدوء حتي لا توقظ ابنتها الصغيرة، وحين لم تسمع رد أدركت إنه بعيد فاستجمعت باقي طاقتها وانسلت من الفراش بعدما أمنت أبنتها بحلقة من الوسائد كي لا تسقط.

حين خرجت من غرفة نومها وجدت نور المطبخ مضاءاً فتوجهت له ولكن قبل وصولها سمعت صوت مكتوم كالبكاء انقبض

له قلبها فأبطأت خطواتها في شك، ولكن فجأة تحول لنشيج حاد أجفلت له، فهرعت نحو مصدره لتجد زوجها جالساً علي مقعد المطبخ وبجواره زجاجة مياه نصف ممتلئة ومبتلة بقطرات متكاثفة علي سطحها الخارجي، بينما زوجهت منحني بنصفه الأعلي علي فخذيه ويبكي بعنف ودموعه المتساقطه تصنع بقعه مياه علي الأرض تحته. بلا تردد وفي صمت أحتضنته فأجفل لأنه لم يسمعها أو يشعر بها وسط بكاءه، ولكن سرعان ما استسلم لضمتها وهدأت حدة بكاءه مع تربيتتها الهادئة المستمرة علي كتفه وظهره حتى هدأ تماما وانسحب من حضنها لينظر لها بابتسامة ودودة ممتنة دافئة.

ماذا أيقظكِ ؟

الظمأ.

أعطاها الزجاجة وتأملها وهي تشرب بنهم أدهشه نسيانها له منذ قليل أثناء أحتضانه، وحين انتهت وضعت الزجاجة بجواره بهدوء.

وأنت؟

كابوس.

ضمته مجدداً فربت علي ذراعها بامتنان وعادا لغرفتهما لأكمال نومهما.

****

بعيون منتفخة خرجت من المطبخ تحمل أكواب الشاي الساخنة، كان زوجها يجلس في المقعد المواجه للتلفاز بينما ظهره لها ممسكا هاتفه المحمول ويتحدث بتركيز شديد.

نعم كما أقول ... أنهى ذلك ثم خنقها وهو يبتسم ولا يبالي بعينيها الدامعتين الناطقتين بالذل والاستسلام وهي تنظر لجمهوره الصامت. ثم بعد موتها ضحك بقوة وهو يغادر الجراج قائلاً "لا تدّعوا أنكم رجالاً بعد ذلك وإلا ستعرفون ما سيحدث".

وضعت الصينية علي المنضدة أمامه وجلست بجواره ناظرة للتلفاز المغلق.

سأكلمك فيما بعد .. أكمل غداءك.

ابتسمت بوهن بعدما أغلق.

أنا أتذكر هذا المشهد .. ذكرني باسم الفيلم.

لا أذكر.

وقام آخذاً هاتفه وكوب الشاي للشرفة.

****

استيقظت مجدداً فزعة كما الأمس بالضبط، وقد أغرقها العرق وارتفعت في أذنيها دقات قلبها كطبول مدوية. احتارت هل هو سوء حظها ما جلب لها كابوسين متتاليين أم أن هناك ما يتعب نفسها ويفسد نومها هكذا. فزعت حين جال بخاطرها أن يستمر هذا لعدة أيام فجسدها منهك بشدة، لقد فقد النوم جدواه لها، يومان دون نوم طويل يريح جسدها، كلما غفت خلال اليوم استيقظت بلا سبب، وفي الليل تنتظرها الكوابيس، تمنت أن ينتهي هذا قبل أن تنهار نفسيا وجسديا.

اعتدلت على الفراش ونظرت حولها في الضوء الخافت للغرفة لتجد بجوارها ابنتها في نومها الباسم، وفي الجهه الأخرى زوجها ولكن يبدو أنه لم يكن ينعم بنوم مريح، فقد كان جبينه مقطبا وتحتشد وتتكاثف فوقه حبات العرق التي فرت بعضها لتركض فوق وجنتيه وعنقه، بينما شفتاه تتمتمان بخفوت بكلمات لم تستطع تبينها.

أشفقت عليه من هذا فوكزته بلطف في كتفه وحين لم يستجب ربتت بقوة أكبر فاستيقظ صارخا:

لم يكن بيدي شيء .. أقسم أنه لم يكن بيدي شئ.

انتبه أنه على الفراش وأن زوجته تنظر له بقلق، فأغلق عينيه وأخذ شهيقا عميقا وصمت.

****

كابوسٌ آخر؟

نعم.

وأنا كذلك .. أأنت بخير؟

نعم.

أتريد أن تحكي شيئاً؟

لا، ولكن إن أردتِ أنتِ أن تحكي فليكن.

لست متأكدة .. فقط استيقظت وأنا أذكر حدثا مفزعاً، لكني لا أذكر ما هو .. صورة ضبابية تتشكل وتتبدد بشكل لا يساعدني في تبينها.

إذن لا تجتهدي في تذكرها، فلن يفيدك ذلك في شيء، بل سيزعجك أكثر.

أنت على حق.

يصمت كلاهما ثم يتقلب هو في فراشه ويعطيها ظهره، فتتمدد علي جانبها وتعطيه ظهرها ناظرة لابنتها.

لم تقل لي، ما هو الفيلم الذي كنت تحكي عنه لصديقك؟

لماذا تهتمين هكذا؟

أشعر كأني رأيته منذ وقت قريب، فقط لا أذكر متي ولا اسم الفيلم.

هذا محال.

****

جلست علي الأريكة مضطربة، واضعة طفلتها علي ساقيها وتهزها بتوتر لا يناسب تنويم الطفلة، بينما الصغيرة تبكي في خفوت من يرغب النوم ولا يستطيع. اتصلت برقم ما علي هاتفها المحمول، وظل الرنين يأكل في أعصابها حتي رد صوت ناعسٌ لفتاة.

آسفة لإيقاظك الآن، أعرف أنك تنامين صباحا، لكني أردت أن أحكي عما أشعر به.

ما بكِ؟

ليومين أستيقظ بسبب كوابيس مفزعة، ولم أكن أتذكرها، وتسببت قلة النوم تلك في أن نمت اليوم ظهراً من التعب دون أن أشعر، برغم بكاء ابنتي بجوارى، ورأيته مجدداً.

ماذا رأيت؟

الكابوس.

أنتِ لا تذكرينه، فكيف تأكدتِ من أنه الكابوس نفسه؟

وقعه عليّ .. ثم إن هناك أمر أغرب.

ما هو؟

أننى لم أتذكره وحدى بل ساعدني زوجي بشكل غير مقصود.

لا أفهم.

حكاه لصديقه جواري قبل أن أراه للمرة الثالثة.

ما تقولينه غير منطقي، ربما هى ألاعيب عقلك الباطن.

لا أدرى ولكني حين سمعت زوجي ظننته يحكى عن فيلم وحين سألته عن اسم الفيلم وألححت فى السؤال قال أنه ليس فيلما بل تجربة سيئة لصديق له، ولم أربط بين كلامه وبين الكابوس إلا حين رأيته مجددا، وعشت ما حكى وحينها شعرت أنه ما رأيت فى الكوابيس السابقة ولم أكن أذكره.

هذا كلام غريب، حاولى أن تسترخى واشربى كوباً من اللبن الدافيء أو عصير الليمون مع دواء منوم حتى لا ترى تلك الكوابيس مجدداً.

سأحاول.

أغلقت الهاتف وتركته ونظرت إلى صغيرتها التى كانت مستغرقة فى النوم من مدة قليلة ومبتسمة كعادتها بشكل متناقد تماما مع ما كانت عليه قبل النوم. هى تحب أن ترمق طفلتها وهى نائمة، وجه ملائكى بسام ومريح يدعو لمبادلة الابتسامة له، ولكن هناك خاطر قد بدد ابتسامتها تلك، أليس غريبا أن ملامح ابنتها تتشابه مع ملامح ضحية حلمها!

****

لا .. لا تقتربوا من ابنتى، من يلمسها سأقتله .. ابتعد .. ابتعد .. تحركوا يا أوغاد .. ألستم رجالاً ؟ ألا توجد نخوة أو شهامة ؟ فليحرقكم الله جميعا .. ابتعد.

وكزها زوجها بعنف فقامت صارخة "الاوغاد" ثم نظرت حولها فى هلع فلم تجد نفسها سوى فى غرفة نومها وزوجها ينظر لها بفزع بينما صغيرتها تنام فى هدوء مبتسمة فحضنتها بعنف وقامت بسرعة.

كابوس؟

ابتعد عنى.

ما بك؟

أنت معهم.

مع من؟

المشاهدين.

ماذا؟

ترونها تغتصب أمامكم وانتم تشاهدون.

ماذا تقولين؟

وتموت المسكينة أمامك فلا تبالون .. ما أبشعكم؟

اهدئى ارجوكِ.

.. تجلس منهكة على مقعد قرب باب الغرفة وطفلتها نائمة فى حضنها.

آسفة .. أعلم أنه حلم، ولكنى منهكة من قلة النوم.

لا بأس.

أنا لا أدري لماذا يحدث لى ذلك ؟

خذى منوم مثلي.

لا .. النوم أمر يتقنه الجميع .. وأنا لست مريضة للأدوية .. أنا أكره الأدوية، وأيضا لا أريدها أن تصل للبن الصغيرة.

ولكن..

لا تشغل بالك، أكمل نومك وخذ الصغيرة بحضنك فأنا لن أنام.

لمتى؟

لا أعلم.

****

أبى.

ماذا .. من أنتِ ؟

ابنتك.

ابنتى طفلة .. وانتى شابة.

هذا أنا يا أبي لا تقلق.

أنا أعرف تلك الملامح .. أذكركِ.

أخيراً.

ولكنك متِ.

ذنبك لم يمت بموتي.

لا أفهم.

أتعتقد أنك نجوت أنت وأصدقاؤك الأوغاد.

كنا مخطئين وتُبنا.

توبتكم تلك لربكم ..بحقك بما أفادت توبتكم ضحاياكم.

وما ذنبى؟ لقد مات من قتلك تلقى عقابه ومات فى مطاردة شرطة.

ومن سلمونى له .. ألا يستحقون العقاب !

لم نسلمك .. هو من كان يراقبنا وعرف بأمرنا فاقتحم المكان واستغل الأمر.

كم تضحكنى .. وكأنكم كنتم تجتمعون لتدرسوا!

لقد تبنا.

أصمت ..أنتم قتلتم عشرات الأرواح البريئة قبله وتركتم أجساداً مشوهة بعبثكم، لا فائدة من بقاء أرواح صاحباتها بعدكم.. ربما من قتلنى رحمنى من العار الذى كنت سأعيش فيه بقية حياتى بعد عبثكم.

صدقينى لقد ندمت.

لم يفدنى ذلك.

ماذا يمكننى أن أفعل لكِ ؟

لا شيء، فقط عش وشاهد زوجتك تجن من وجودي بأحلامها وابنتك بوجودي ستكون لعنتكما.

ماذا؟

تريد الخلاص منى وحماية ابنتك وزوجتك؟

أيمكن؟

هاهاها .. لا طبعا .. خلاصك مني يعنى خلاصك من ابنتك نفسها .. قرر أنت.

****

يبدو أن زوجتك جنت يا عاصم.

أعلم ذلك.

اخفض صوتك حتى لا تسمعك.

هي تعلم أنها جنت ولا تبالى بما يقال أو يظن عنها فتحدثى بحرية.

وماذا يبقيك عليها يا ولدى؟ أتركها أو دعها بمصحة ما وأحضر من تهتم بابنتك.

لا أستطيع يا أمى.

آه يا كبدى .. أمازلت تحبها ؟

نعم .. ولكن ليس هذا المانع.

لا أفهم.

أشعر يا أمى بأنها إن غابت لن أستطيع أن أعيش.

استعذ بالله من تلك الافكار السامة.

إذا لم تنم كل ليلة بجوارى سأموت.

ماذا؟

هذا قدرى وعقابى الأرضى.

عقابك ؟ مما يا بني؟

لا شيء يا أمى دعكِ من الأمر.

قلبي لا يحتمل حالك هذا.

وأنا لن أحتمل فراقها .. صدقيني سأموت.

لا تقل كلاماً غير حقيقي، مئات يتزوجون حين تمرض زوجاتهن.

إلا أنا ... زوجتي يا أمي – لسخرية القدر – ملاكى الحارس من ابنة خطاياي.